الفن فى الصناعة المصرية

وحاجة صناعنا الى تربية فنية

للأستاذ سلامه موسى

دعيت ذات مرة إلى زيارة أحد الأصدقاء الميسورين ، ودخلت مكتبته وأعجبت ببعض الخزانات التى رتبت على رفوفها الكتب ، فعلق الصديق على إعجابى، ثم دعانى إلى فتح إحدى هذه الخزانات وطلب إلى أن أقفل الباب ، فلما فعلت أبى الباب أن يقفل لأن الهواء احتبس فى الداخل فدفع الباب ، واضطررت إلى التمهل فى الإقفال حتى عاد الباب إلى مكانه وأقفلت الخزانة .

وكان المغزى الذى أراده صديق أن النجار الذى صنع هذه الخزانة قد أحكم الباب وجعل حروفه تماس حروف الخزانة ، حتى أنه عند ما يقفل بسرعة يتضغط الهواء فيدفع الباب إلى الخارج ، وبديهى أن هذا الإحكام يجعل تسلل الغبار إلى الكتب مستحيلا أو كالمستحيل .

ومثل هذا الإحكام قلما نجده عند نجارينا الذين يرضون بما دون الكمال مع قدرتهم عليه لو شاءوا ، ولكنهم يهملون لاعتقادهم أن الزبون يرضى بأقل من ذلك، وهذا الإحكام هو نفسه نوع من الفن ، لأن الروح الفنى يقتضى الحب والولاء للصناعة التى تمارس مهما تكن مكانتها أو قيمتها .

كنت ذات مرة أتنزه عند ساحل من سواحل النيل التى تصنع عليها الزوارق والسفن الشراعية فى دمياط ، ووقفت أتأمل صانعا يعلم صبيا كيف يدق المسمار ،ولشد ما دهشت عند ما رأيته ينصح له ويقول بأن طريقته فى الدق ليست " معجبة " ، فهو لم ينتقد الدق من حيث أنه فعل أو سريع أو غير ذلك ، ولكنه انتقده من حيث أن يد الصبى وهى ترتفع ثم تقع على رأس المسمار لاتبعث على الإعجاب ، لأنها تخلو من الرشاقة أو لباقة الحركة والإيماءة .

وهذا هو الروح الفنى . فإن الصانع الذى يحب صناعته يتوفر عليها بقوة نفسه كما يتوفر عليها بقوة جسمه . فهو لايستعمل عضلاته ومهارته التى تعلمها، بل يستعمل ذوقه، وهو ينفق عليها من نشاطه أكثر مما ينتظر منها من الثمن أو المكسب ، وهو لاينشد من عمله سلعة تباع بل طرفة تقتنى تحمل طابع شخصيته وتكشف عن فنه بل عن حبه وولائه لصناعته .

والفروق كثيرة بين الصناع . فإن مهارتهم فى العمل تختلف ،لأن مقدار ما تعلموه من الصناعة يتفاوت . ولكنهم يختلفون أيضا فى النواحى الفنية أى فى الاتقان والذوق . فأما الاتقان فإننا نرى التفاوت فيه عظيما بين صانع وصانع . بل هذا الفرق يزداد عندما نقابل بين صناعة مصرية وأخرى أجنبية حتى صارت عبارة " شغل بلدى" وصمة بدلا من أن تكون ميزة. ولسنا نتعامى عن تفشى الفقر بين مجتمعنا ورغبة الكثيرين فى شراء الرخيص الذى لم ينفق عليه من الوقت والعناية ما يستحق . فإن هذا الفقر من أسباب اللهوجة العامة فى صناعاتنا . ولكنا نخطئ اذا كنا نظن أن الرغبة فى بيع الرخيص من المصنوعات هى السبب الوحيد لهذه اللهوجة أى لقلة الاتقان والإحكام . فإن صانعنا يهمل لأنه أيضا لاينظر النظرة الفنية لسلعته بل يقنع بالنظرة التجارية .

ثم هناك الذوق . وهنا كثيرا ما يمتاز الصانع الأوربى على الصانع المصرى . ذلك أن الأول نشأ فى بيئة فنية فعرف البيت الذى رتب أثاثه واختيرت رسومه وصوره، وعرف المائدة التى تحمل أحيانا طاقة الزهر ، وعرف المدينة الجميلة والمتحف الفاخر الذى يحفل بالتماثيل والرسوم . وهو نفسه قد تعلم القراءة والكتابة منذ أن بلغ السادسة أو السابعة من عمره وصرن على الرسم وطلب اليه الاتقان فى الصغير التافه فعرف قدر الاتقان فى الكبير الخطير، فهو قد اتجه منذ صباه اتجاها فنيا غرسته فى نفسه البيئة البيتية التى لا نحظى نحن بمثلها فى مصر ، لأن فقر الطبقات العاملة عندنا يجعل البيت محروما من هذه المرافق الفنية التى تغرس الذوق فى الصبيان كأنه بعض أخلاقهم التى يجب أن ينشأوا عليها ويتعودوها . والواقع أن كثيرا من النقص الفنى فى الصانع المصرى يعود الى أن ملكاته الفنية لم تجد التربية النافعة فى البيت والوسط الاجتماعى، والى أنه أيضا فى كثير من الأحيان قد حرم التربية المدرسية الراقية إلا القليل الذى حصل عليه فى المدرسة الالزامية . وليس هذا القليل مع ذلك مضمونا متوافرا لكافة الصناع .

فالنقص فى الاتقان والذوق هو الصخرة التى تتحطم عليها صناعاتنا اليدوية . والنقص فى الاتقان — سوف يصلح بقوة المزاحمة الاقتصادية بين الصناع . أما النقص فى الذوق فيحتاج الى تدريب طويل . لأن الذوق هو زى خاص يفرضه المجتمع فى الاشكال والألوان والأناقة والرقة ، ويحتاج الصانع الى أن يعيش فى مجتمع راق له نزعات فنيه لكى يمتاز هو بالذوق الفنى .

فإننا مثلا نستبشع اللون الأحمر الصارخ فى ملابسنا وأثاثنا وطلاء منازلنا ، ونستظرف الألوان الهادئة التى قد تميل إلى السواد أو الغبرة أوالسمرة ، ونحن لا نكتسب هذا الذوق إلا من المجتمع . فالصانع المصرى كما يكسب هذا الذوق فى الألوان مجتمعة يكسب أشياء

أخرى منه فى الشكل والرقة والأناقة ، فإذا كان ذوقه متخلفا فى هـذه النواحى فإن المسئول عنه هو المجتمع .

ولكن هل هذه الحال تدعو إلى اليأس ؟

كلا . فإن فى مصر كثيرا من المدارس الفنيـة التى يتعلم فيها الطلبة الفنون الجميلة على أرقى مستواها وأحدث تطورها . فماذا يمنعنا أن نأخذ صناعا فى الصناعات المختلفة ونجعل كل فئة منهم تدرس شهرا أو شهرين فى هذه المدارس دروسا نظرية وعملية ، كل فرد فى الصناعة التى يمارسها ويتكسب منها . وبالطبع يجب أن نؤدى لهم أجرا عن هذا التعطل . وهذا الأجر لن يكون كبيرا . فإن صانعنا يقنع بثلاثة أو أربعة جنيهـات فى الشهر . وهو لن يحتاج إلى أكثر من شهرين للتعليم والتدريب . وكلاهمـا ممكن إذا كان النظـام داخليا حتى يستوعب الدرس والتمرين معظم النهار وبعض الليل .

وظننا أن الصناع المصريين يرحبون بهذا الاقتراح . كما أننا جميعا — جمهورا وصناعا — سننتفع منه . لأن الجمهور سيحصل على مصنوعات فنية متقنة ، وكسب الصناع سيزداد . لأن فى الصناعات المصرية ما سيغنى عنـدئذ عن استيراد كثير من المصنوعات الأوربية . ومع أن الأوربيين لا يشكون من صناعهم مثل النقص الذى نشكو فإن مجالسهم البلدية تحرص على انشاء المدارس الليلية التى تعلم الصناع التمهر والتكمل فى صناعاتهم المختلفة ، وهذه المدارس تتناول عشرات الصناعات التى تمارس فى مدينة المجلس أكثر من غيرها .

إننا نرجو أن نصل الى اليوم الذى نفخر فيه بأن هذا المصنوع من أديم أو خشب أو معـدن أو ورق هو " شغل بلدى " أى من عمل اليـد المصرية التى مهرت ودربت حتى اتقنت ما تصنع بعد دراية فنية رفعت الذوق ، وجعلت الدقة والأناقة مذهبا مصريا يعترف به الوطنى والأجنبى ما

سلامه موسى

إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه .

حديث شريف